الانسان العاجز

عنوان كتاب ظهر حديثاً للاستاذ شارل ريشه والاستاذ شارل ريشه من شيوخ العلم في فرنسا بل أغزرهم مادةً وأوسعهم بحثاً وأطولهم نفَساً وقد جمع بين الطب والفلسفة والشعر والرواية والتاريخ وله في مختلف هذه الفروع مؤلفات وآراء يخرج في كثير منها عن المألوف ، وقد كان في طليعة من عني بالطيران ووضع للطيران خططاً ورسوماً . وهو مكتشف الانافيلاكسي[1] والحائز جائزة نوبل واحد أرهاط علم « ما وراء الروح — Metapsychive » وقد أظهر شجاعة محمودة يوم قال ان اكثر الحوادث المتعلقة بهذا العلم كالأشباح الشفافة (Te toplasme) التي تخرج من جسم الوسيط يجب ان تدخل الى المخبر وتخضع لنواميس المراقبة والامتحان . ان رجلاً مثل هذا بلغ من العلم والتفكير مابلغ وأتم طوافه حول المعرفة البشرية لخليق ان يجمع في أخريات ايامه شتى التعاليم التي استفادها بالبحث والتنقيب وان يعرض على الناس فلسفته التي انتهى اليها . وقد نشر من قبل كتاباً عنوانه : « الانسان الأحمق او البليد » وهو احتجاج وشكوى على الانسانية التي تُقفل فتوحات العلم وتعيش بالتقاليد والعقائد الكاذبة وتتفاني في اختراع وسائل التدمير والهلاك

---

(١) كلمة يونانية معناها ضد الحماية والمراد بها حالة استعداد خصوصية يكتسبها الجسم فيصير سريع الاحساس والتأثر مثلاً من السموم او العقاقير الطبية ما يتعود الانسان اخذه دون ضرر ففي حالة الانافيلاكسي يزول هذا التعود فيصبح الانسان حساساً حتى ان جرعة صغيرة من هذا السم او الدواء تفعل فيه فعلاً هائلاً وربما قتلته في حين كانت الجرعة الكبيرة لا تؤثر . (انظر خواطر في الصحة والادب في باب الاستعداد والمناعة) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بدلاً من ان تسعى الى تخفيف ويلاتها لتعيش بسلام في حضن طمأنينة لا يصعب عليها ايجادها . وكتابه الاخير « الانسان العاجز » هو نفثة ثانية من ذلك اليراع الجريء الا انه يتجلى لنا في مظهر آخر وهو ما أردت ان ألمّ به في هذه الرسالة .

يقسم المؤلف عجز الانسان الى أقسام : فالاول عجزه الطبيعي او الكوني اي قصوره عن معرفة العالم الذي يحيط به وارتباطه بجاذبية هذه الارض لا يعلم ما يجري في غيرها من العوالم فهو مضطر الى الخضوع لا قبل له بتغيير شيء من الحوادث التي تمر أمام عينيه .

والثاني عجزه الفردي فان كل ما أخرجه الناس علماء كانوا او شعراء وأصحاب صناعة او فن لا قيمة له إزاء العالم . وكم من الكتب التي استغرقت عمر أصحابها وهي اليوم مكدسة كالحصيد في الخزائن على غير جدوى . ثم أمواج البشر سراعاً فلا تترك للفرد عملاً ذا تأثير .

والثالث عجزه الفكري : من اين والى اين ؟ سؤال أزلي لم نتقدم خطوة في حل رموزه منذ كان البشر وكان الفكر . لماذا وجدت الحياة ؟ لا نعلم ، وجل ما وصلنا اليه تعاليل مضحكة وآراء صبيانية . نحن لا نعلم ولن نعلم كيف تتجزأ البيضة باجتماع مادتي الذكر والانثى . ولا كيف تحفظ الخلية العصبية التذكار وتنقله من جيل الى جيل . ليس ثمت حاضر ولا ماض ولا مستقبل والذكاء الانساني لم يتغير من ايام بركلس . وما الفائدة من هذا الذكاء اذا لم يكن منه الا ان يرينا جهلنا الكامل دون ان يساعدنا على الخروج منه [1] .

والرابع عجزه الفسيولوجي اي ان ذكاء الانسان موصول بصحة جسده فهو تحت رحمة هذا البدن لا يستطيع تغييراً فيه ولا تبديلاً ولا سبيل الى تأخير الهرم او الموت ولا تحديد جنس المولود قبل ان تقع عليه جناية الوجود .

والخامس عجزه الاجتماعي فهو لم يوفق حتى اليوم الى انشاء اتحاد يتفق مع احواله وأمياله ليخف خصامه وثقل آلامه .

(١) يقول مترلنك ان الذكاء هو الخاصة التي تنتهي بها الى ادراك اننا لا ندرك شيئاً . (عن كتاب مملكة الظلام) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والسادس عجزه الادبي فلا تزال الشهوات متحكمة به والاهواء متسلطة عليه فهو عبد لها مأمور نقوده بالزمام حيث تشاء الاهواء لا حيث يشاء ٠

هذا موجز ما في الانسان العاجز وقد تعمد المؤلف الصراحة كما ترى فجاء كتابه مراً قاسياً الا انه لايخلو من جاذبية لانه ضم بين دفتيه نتائج أبحاث هذا العلامة وكلها تنطبق انطباقاً تاماً على ما نشعر به كلما ولينا الفكر شطر هذه المسائل الغامضة ٠

وعلى الرغم من ان المؤلف لم يقصد من ورائه الى تثبيط الهمم وعلى الرغم من انه ليسدينا النصح و يشير الى تربة « انا » لانه التربة الوحيدة التي يمكن ان تخرج شيئاً صالحاً — لايسعنا الا الاقرار ان هذا الكتاب يسوق الى اليأس المطلق وهذه الصفحات صراخ نفس متألمة وعقل حائر وأمل خائب لاتفتح الطريق الا الى احد امرين: الانتحار او الاستسلام للايمان الاعمى وكلاهما غير قمين بانسان اليوم الذي اوطأت له الارض مهادها و باح له الوجود بكثير من أسراره ٠

لا جرم ان الانسان أعزل امام قوى الوجود وهو يشعر ان حياته وميض برق بين لا نهايتين اذا شئت بين عدم سابق وعدم لاحق ولكن الحياة التي قبلها على الرغم منه صارت عزيزة عليه ٠ وماذا يهمه ان كان لا يستطيع الافلات من جاذبية الارض فهو يحب هذه الام التي دب على جنبها وحسبه ان يعرف استثمارها وان يطيل حياته عليها ويحيطها بكل ما يستطيع من جمال ولذة ٠ ولقد ظفر ببعض ما أراد ولا يزال المجال رحيباً أمامه فهو يسعى الى الاكثار من معارفه الجوية والارضية آخذاً الى تخفيف نظام الاجتماع بقدر ما يستطاع مداوياً حالات عجزه بما يحاوله من السيطرة على العناصر المحيطة به واذا أمعنا النظر وجدنا ان العجز الفكري هو أهم هذه الحالات ولكنه ليس أصعبها معالجة كما سترى ٠

من المعلوم ان العلم لم يجلب السعادة لبشر ولا أزال أذكر الضجة التي ارتفعت منذ سنوات قائلة بافلاس المعارف البشرية وكان حامل لوائها « برونتيار » محرر مجلة العالمين غير ان هناك من المنافع التي جاءت عن طريق الرقي ما لا ينكر الا اذا عددنا من الامور النافهة تخفيف وطأة الالم وتقلص ظل الاوبئة ولم يكن في نظرنا احتفاء شبح المجاعات عن وجه الارض شيئاً مذكوراً ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم اننا لم نبلغ من التقدم في المعرفة مايحملنا على الحكم اننا وقفنا عند الحد الاقصى فلا سبيل بعد اليوم ان نعرف اكثر مماعرفنا و(ريشه) نفسه يقول في كتابه ما وراء الروح : « ان من الحماقة ان نرفض الاعتقاد بامكان الشيء لمجرد ان العقل لم يألفه » ويقول ايضاً : « لما ذا نفترض ان حواسنا الخمس هي حدود العالم وانه لا يوجد قوى أخرى خارجة عنها » . ولو ان رجلاً قام في عصر لويس الرابع عشر وقال ان في الامكان ان نسمع في رومه صوت المتكلم في باريس او ان يُرى مافي باطن الجسم الحي او ان تُحفظ جراثيم الامراض في زجاجة او ان يحمل الهواء ٥٠٠ مدفع تنقل بسرعة ٣٠٠ كيلومتر في الساعة . لو ان رجلاً قال هذا القول لذلك العهد لعد مجنوناً وكان مأواه المستشفى او السجن على ان هذه الامور أصبحت اليوم من الحقائق الملموسة واسمها التلفون والاشعة المجهولة والبكتريولوجيا والطيارات .

لا يجهل احد اليوم ان التيار الكهربائي السريع التهادي (Courant de Haute fréquence) يمر بجسم الانسان دون ان يشعر به فمن يدري اذا لم يكن يمر بنا كل حين اهتزازات مختلفة لا نشعر بها من مثل الامواج الهرتزية [1] وسواها ؟ وقد حكى هكسلي عن نفسه انه وضع رأسه بين ذراعي المغناطيس فما أحس بشيء ومع هذا فان للمغناطيس قوة ترفع عن الارض من الحديد مازنته ٢٠٠ كيلوغرام فتأمل .

مثل هذه القوى التي نعرف بها ولا نعرف ماهي لادليل اننا لن نصل يوماً الى فض أسرارها . كنا بالامس لا نعرف السبب الذي من أجله يحوم الفراش حول النور و يهواه ولو كان فيه هلاكه فقام احد العلماء واسمه (ستفان لدوك) واجرى تجارب مهدت السبيل الى إزاحة الستار عنه وذلك انه وضع مذوّب الملح في الماء في زجاجة وعرض نصفها للنور وأبقى النصف الآخر في الظلمة ثم سكب في الزجاجة قطرة من الماء الملون بالحبر الاسود فكانت دقائق المادة السوداء تتحاشى المكان المضيء وتسرع نحو القسم المظلم متجمعة فيه وهذا ما يسمونه (الفوتوتروبيسم — Phototropisme) اي الدورة نحو النور فهذا الحادث اي الدورة نحو النو تجده ايضاً في عالم النبات كما

(١) نسبة الى العالم هرتز .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نرى في بعض الازهار التي تميل الى جهة الشمس ونجده في عالم الحيوان وهو ايجابي وسلبي اي ان الدورة قد تكون انجذاباً الى النور وقد تكون ابتعاداً عنه وعليه بنى (لوب) رأيه في الغرائز فقال : ان السبب في انجذاب الفراش نحو النور هو وجود مادة في عيونه تتأثر بالنور مثلما تتأثر مادة الحبر الاسود ولكن تأثرها ايجابي وهو الذي يفعل بالمركز العصبي فينقل اثره الى العضلات . فما الغريزة في نظره الا تفاعل كيمي وكل آمال الانسان وأحلامه ويأسه وآلامه وماغيه من آداب وفضائل وعيوب ورذائل أصله في غريزة تشبه الفوتوتروبيسم . وسواء صح هذا الرأي ام لا فان هذه التجارب وغيرها دليل على ان العقل الانساني لم يكتب له الجمود فيظل قاصراً عن تناول الاشياء البعيدة عنه وإدراك الحقائق المجهولة منه .

نعم هذا كله لايحل اللغز الاعظم الذي هو مسألة المسائل ولكن هل نكون أقدر على حله يوم نصل الى زيارة المريخ او الى التعليل عن تجزإ البيضة او الى تخفيف سرعة النور مثلاً ؟ واذا عرفنا يوماً من اين اتى الانسان والى اين يذهب فمن يؤكد لنا ان كشف هذا السر ملائم لمصلحة البشر .

عاجز هو الانسان ولاريب لانه انسان لا آله ، ولكنه لم يقف مكتوف اليدين أمام هذا العجز وهؤلاء هم المصلحون والابطال والمخترعون لم تذهب حياتهم سدى . واني من الذين يؤمنون بمستقبل البشرية وينظرون اليه نظرة رجاء ويقين . انا لاأجهل ان البغض والرياء والطمع أخلاق راسخة فينا وأعلم ان النزاع بين الافراد والجموع سيبقى الى أجل لايعلمه الا الله ولكن هذا لايمنع الفكر ان يزيد إشراقه والعلم ان يتسع نطاقه حتى تتعدى الانسانية طورها الحاضر بما تملك من زمام العناصر . واذا صح ان يقال عن الدنيا ما يقال عن الحب وهو انها كبعض الفنادق الاسبانية لاتقدم للزائر غير مايجليه معه فالانسان الآتي اليها لايجد الراحة الا فيما يحمله بين برديه من جميل التربية ليعرف ان يتمتع بملذات الحياة مع المحافظة على نظام الادب الاجتماعي الذي هو أساس سعادته .

وعلى ذكر الادب الاجتماعي أقول ان هذا الادب ليس لفظة فارغة كما يعتقد البعض او حالة وهمية يختلف مفادها باختلاف السلائل والامم والبلدان ، واتفاقاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

موضوعاً على اعتبار هذا الشيء حسناً وذاك قبيحاً، وان مايحرم في المدن يحلل في القرى او ما يمنع في الصغر يباح للانسان في كبره . كلا ان هذا الاعتقاد فاسد لان الشرعة الادبية واحدة لاتتغير . خذ حجراً حيث كنت في الشام او مصر اواميركا ودعه يسقط من يدك فانه يهوي الى الارض بناموس الجاذبية . وانظر الى السيل ايان انهمر تجده منحدراً من المكان العالي لاصاعداً اليه . فالسرقة شيء محرم والكذب امر مكروه لا لانه يوجد وصايا دينية او أحكام مدنية تعاقب السارق والكاذب بل لان السرقة والكذب من الاعمال التي تفكك عرى الحياة وتقلقل أساس الاجتماع . الشرعة الادبية ليست في قبضة المرء وطوع اختياره كما انه ليس في اختياره ان خبزاً كان طعامه لاحصى . ولكن الخبرة علمته ان بعض حالات المعيشة صواب وبعضها خطأ نخرج من خلال اختبارات العصور حكمة تتناقلها الاجيال وهذه الحكمة هي المشكاة التي يجب ان نستنير بها في ظلام المعترك الحيوي وهي تتناول تصرفات الانسان بالنسبة الى نفسه والى الآخرين فكما انك اذا أهديت عصفوراً وبطة لاتضع البطة في القفص والعصفور في الماء فالحكمة تعلمك ان تضع كل شيء في مكانه لتحفظ التوازن في حياتك ولاتكون من الخائبين .

وما يقال عن العجز الفكري والادبي يقال عن العجز الفسيولوجي وغيره فان مكتشفات الطب الحديثة وما وصل اليه علم الحياة (البيولوجي) وما أميط عنه الحجاب من أسرار الجسم ووظائف الغدد وغير ذلك شعاع ناقذ في دياجي العقول وكوة مفتوحة على عالم المجهول .

هذه هي الخطرات التي عرضت لي عندما وقعت على « الانسان العاجز » فما كدت أطبق الكتاب حتى تجلى لي العنوان محرفاً فاذا بي أقرأ : الانسان القادر .

الدكتور نقولا فياض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net